قهوة ياسمين

كانت الحانة الصغيرة عند زاوية حيّ تسلندورف مزدحمة كعادتها مساء السبت.
الضوء خافت، والموسيقى غريبة — لا شرقية ولا غربية — كأنها تبحث عن هويةٍ في مكانٍ لا يملكها أحد.
جلست ياسمين قرب البار، ترتشف مشروبها وتراقب الوجوه حولها، ثم راحت تهز كتفيها بخفة على الإيقاع.

لم يلتفت إليها أحد.
ربما لهذا السبب تركت نفسها تنساق أكثر مع الموسيقى.
وفي ذروة انغماسها، سمعت صوتًا خلفها يقول بانفعال:

— «أنتِ... كيف تجرئين؟»

استدارت، فإذا بامرأةٍ شقراء ترفع هاتفها في وجهها.
قالت بغضب: «ماذا تقصدين بالبوست عن الخراف السوداء؟»

نظرت ياسمين إلى الشاشة، عيناها تتحركان بسرعةٍ بين السطور، تقرأ:
«مثل قصة الخراف السوداء، اللاجئون السوريون يرتجفون في برد التعاطف الانتقائي، بينما يُستقبل الأوكرانيون بالأحضان.»

قالت ياسمين بهدوء: «وأين المشكلة؟ قلتُ الحقيقة.»
ردّت الأخرى بعصبية: «ابني يذهب إلى المدرسة هنا، وزملاؤه سيقرأون هذا. سيسخرون منه ويضايقونه.»
أجابت ياسمين ببرود: «إذن علّميه أن العالم ليس عادلًا.»

تغيّرت الإضاءة فجأة، وارتفعت الموسيقى بنغمةٍ حادّة.

«نتالي هل كل شيء على ما يرام« صوت يسمع من الخلف.
دفعتها ناتالي بكتفها، فبادلتها ياسمين بدفعةٍ مماثلة.
تجمّع الناس حولهما، يراقبون المشهد بصمتٍ متلذذ.
ثم جاء أحد رجال الأمن، أمسك بذراع ياسمين وأخرجها من الحانة بينما بقيت ناتالي واقفةً، تلتقط أنفاسها بارتباكٍ وغضب.

في اليوم التالي، كانت ياسمين تُغلق مقهاها الصغير في شارعٍ جانبيّ من الحي ذاته.
أكواب فارغة، كتب على الرفوف، ونافذة تطلّ منها على رماد النهار.
شغّلت أغنية عربية على هاتفها، وأمسكت بالمكنسة تنظّف الأرض وتغنّي بصوتٍ يحمل شوقًا بعيدًا.
وبينما كانت تكنس الأرض، لمحَت صورةً قديمة داخل كتابٍ على الطاولة.
كانت صورتها في قلعة حلب، تجلس على الدرج مبتسمة. رفعت الصورة نحو الضوء وارتجفت شفاهها.

دقّ الباب.
دخلت امرأة ترتدي قبعة ونظاراتٍ سوداء.

قالت ياسمين دون أن تلتفت: «المقهى مغلق.»
ردّت المرأة بصوتٍ متعب: «من فضلكِ...»
جلبت ياسمين كوب ماء وقالت بنبرةٍ هادئة:
«آخر مشروب لليوم، أنا متعبة، لم أنم جيدًا الليلة الماضية.»

تنهدت الزائرة ثم خلعت قبعتها ونظاراتها السوداء.
شهقت ياسمين: «أنتِ؟ ماذا تفعلين هنا، ناتالي؟»
ابتسمت ناتالي بخجل: «لم أنم جيدًا البارحة ايضا.»
قالت ياسمين ببرود: «من الواضح أنكِ استمتعتِ بالحفلة بعد أن طُردتُ أنا.»
— «لا أريد أن نُكبّر الموضوع.»
— «أنتِ من بدأه.»
— «وأنتِ من كتبتِ ذلك المنشور.»
— «لأنه الحقيقة. ألا ترين كيف يُعامَل الناس بشكلٍ مختلف؟»

صمتت ناتالي لحظة، ثم قالت بهدوء: «كان سوء فهم.»
وضعت ياسمين كوب ماء أمامها: «سوء فهم؟ لقد طردوني بسببه.»
تنهدت ناتالي: «لم أتوقع أن يفعلوا ذلك بك. لقد بالغوا.»

ساد صمتٌ ثقيل بينهما.
سألت ياسمين: «وكيف عرفتِ أين يقع مقهاي؟»
— «بعض الناس يعرفونك.»
ضحكت ياسمين بمرارة: «هذا لا يفيدني كثيرًا حين أريد فقط أن أخرج وأنسى كل شيء.»

قالت ناتالي ببطء: «ليس من السهل أن تكوني الخروف الأبيض أيضًا.»
رفعت ياسمين حاجبيها: «الآن تقتبسين مني؟»
— «ربما... الناس يحمّلوننا أكثر مما نحتمل.»

وقفت ناتالي: «على كل حال، جئت لأعتذر.»
قالت ياسمين فجأة: «انتظري.»
أخرجت ورقةً قديمة من مجلة، كانت فيها صورتها وعنوانٌ عريض:
«اللاجئة السورية تُنقذ أطفالًا من الغرق في عرض البحر.»

قالت بمرارة: «حين احتاجوا قصةً بطولية جعلوا مني نجمة.»
قرأت ناتالي العنوان بصوتٍ منخفض: «مثير للإعجاب.»
قالت ياسمين: «والآن يبحثون عن قصةٍ جديدة... وأنتِ التالية.»

رنّ هاتف ناتالي. إشعار: «1670 إعجابًا على بوست الانستغرام.»
ابتسمت ياسمين بتهكم: «ها هي قصتكِ تُكتب الآن.»
قالت ناتالي: «هل تغارين؟»

وبينما كانت تستعد للرحيل، دفعت الكوب دون قصد، فانسكب الماء على الصورة.
صرخت ياسمين: «ماذا فعلتِ؟!»
قالت ناتالي بسرعة: «آسفة، لم أقصد.»

حاولت ياسمين جاهدَة أن تنظف هذه القصاصة القديمة من المجلة، ثم يئست وألقت بمنشفة التنظيف جانبًا.
قالت بصوتٍ خافت:
«كل هذا وهم. ظننت أن حقوق الإنسان متساوية. كنت مخدوعة.»
قالت ناتالي: «الناس ما زالوا بدائيين، ينظرون إلى اللون قبل القلب.»

نظرت إليها ياسمين طويلًا. لأول مرة، بدت ناتالي صادقة.
رنّ هاتفها مجددًا، رسالة من الـ DJ: «العرض أُلغي. النادي خسر. آسف.»
وضعت الهاتف جانبًا وقالت بمرارة: «ربما كنتِ على حق. في النهاية، لا أحد يهتم حقًا.»

ابتسمت ياسمين بحزن: «هكذا يصنعون القصص... ثم ينسون أصحابها.»
قالت ناتالي: «يا له من فخ جميل.»
—«حقا.»
نظرت ناتالي حولها وقالت بابتسامةٍ صغيرة: «مقهى جميل.»
قالت ياسمين: «شكرًا. هل تريدين مشروبًا آخر؟»
— «ظننت أنه الأخير.»
— «غيّرت رأيي.»

جلستا معًا في صمتٍ دافئ.
قالت ياسمين أخيرًا: «بالمناسبة، حذفت البوست.»
رفعت ناتالي نظرها وابتسمت بخفة.

في الفناء الخلفي، جلستا على العشب وقت الغروب.
السماء بلون العسل، وأصوات المدينة بعيدة.
رفعت ناتالي كوبها وقالت: «لنكتب قصصنا نحن.»
ابتسمت ياسمين، واصطدمت الكؤوس بخفةٍ بين أصابعهما.